أقصوصة من بول هيس (١)

جنـــون ...

للأستاذ دريني خشبة

كان الصبح يتنفس عليلاً في الأفق الشرقي ، وكان الفيزوف ينفث دخانه فينعقد سحاباً طويلاً داكناً فوق نابولي والقرى المجاورة ، وكان البحر النائم ملقياً رأسه الجبار على أواذيّ سورّنتو ، حيث انتشر الصيادون فوق الشاطيء وفي الماء وفوق الزوارق يعملون ويدأبون ، لا فرق بين شيبهم وشبابهم ، وكانت النساء يرفرفن فوق الأسطح القريبة كالأعلام المُنَشرة يؤدين أعمال الصباح ... وكان الكل مبتهجاً سعيداً ولاسيما الفتى البحار أنطونيو الذي وقف في زورقه يملأ ناظريه من جمال الطبيعة المتبرجة فوق الشاطئ الإيطالي الفتان

لقد كان أنطونيو سعيداً هذا الصباح ، لأن كثيرين من أهل سورّنتو يذهبون في مثل ذلك اليوم من كل أسبوع إلى قرية كابري ليبيعوا في سوقها ويشتروا ... ولم يكن سعيداً لكثرة زبائنه فقط ، بل كان سعيداً لشيء آخر ... شيء عزيز ... شيء هو حلم القلوب ، وغذاء النفوس ، ومسبح الخيال ، ومستراد الحلم ..

وأقبل قسٌّ من سورّنتو ، فجعل يدلف حتى وقف على السّيف أمام أنطونيو ... ثم قفز فكان في الزورق ، والفتى مع ذاك في شغل عنه ... وعن الدنيا جميعاً

— أنطونيو يا بني ! ! ماذا يمنعك أن تبحر قبل أن تشتد الشمس ؟

— لا شيء أيها الأب ... سنبحر حالاً !

ولكن أنطونيو كان لا ينى يبحث في الشاطئ بعينيه ، يرسلها وراء أيكة ... وكان القس القلق يرى في نظراته الحائرة طيف حبيب تائه ... في عالم مجهول ... ! ! فيعذره ! !

ثم بدت فتاة جعلت تخطر بين دَوْح السنديان وتُلوح بمنديلها فوق الشاطئ ، فهفا قلب أنطونيو ، وطفح وجهه بالبشر المفاجئ وارتجفت يده ، وشاع فيه مرح عجيب ، فسأله القس :

— وبعدُ يا أنطونيو ؟ ! ألا تبحر بنا يا بني ؟

— سنبحر ... سنبحر أيها الأب ...

وكانت الفتاة تتواثب فوق النؤى خفيفة رشيقة ، فلما اقتربت هبّ الملاحون الخبثاء يغمزون ويلمزون ، وإن فرض عليهم وجود القس احتشاماً كان يغيظهم ويحنقهم ... ثم ركبت في فلك أنطونيو ، ووقفت قريباً من القس الذي حياها قائلاً :

— لوريلّلا ! ! عِمى صباحاً يا صغيرتي ! أتصحبيننا إلى كابري ؟

— أجل يا أبانا

— أحسب أن ليس معك نقود من أنطونيو ؟ ! أوّه ! إن أنطونيو شاب طيب ... وهو بلا ريب لا ينتظر من أمثالك

(١) من أدباء بلاط الملك مكسمليان ملك بافاريا سنة ١٨٥٤ ومن أبرع كتاب الأقاصيص

٢ — اليوسفى

ويوسفيٍّ أصفر أنيقٍ تحيـة الصديق للصديق
وتحفـة العشيق للعشيق جرّدته من قشره الرقيق
فجاء مثـل الرَّكَبِ الحليق

٣ — الورد يعصر

تَنَظَّرَ صُبحَ النجم والصبح يسفر لدى كبرياء الخطب والعزم أكبرُ
فتى النُّبْل يزكو بين لينٍ وشدَّةٍ فكالورد يُستهدى وكالورد يعصرُ

أجراً ... بل بالعكس ، لقد فرش لك قميصه ، ولم يفعل ذلك من أجلي ... ولكن أين عشرة قميسين مثلي ، في فتاة ريانة مثلك ، في نظر هؤلاء الشباب ! ! وماذا تحملين إلى كابري يا لوريللا ؟ » وقبل أن تجيبه الفتاة مدت يدها إلى قميص أنطونيو فنحّته ، ثم جلست وقالت تجيب الأب :

— ثوب ، وحرير ، ورغيف أيها الأب ... الثوب لامرأة تصنع الأشرطة في أنا كابري ! والحرير لامرأة أخرى ... والرغيف لي ... أتبلغ به ...

— والحرير من غزلك أنت ؟

— أجل أيها السيد

— أذكر أنك كنت تصنعين الأشرطة بيديك ؟ أليس كذلك ؟

— بلى أيها الأب ، ولكن أمي قد تقدمت بها السن ، ثم هي مريضة ، بل شبه مقعدة ، ونحن فقراء ... فمن لنا بنول نشتريه وليس بمعنا من ثمنه شيء ؟

— أمك ؟ ! وا أسفاه ! لقد أذكر أنني رأيتها في عيد الفصح الماضي !

— أجل ... ولكنها مريضة اليوم ... وهي تقاسي من زوابع الربيع ما لا تقاسيه في فصل غيره ... أضف إلى ذلك زلازل الفيزوف ورجفاته ...

— صلي من أجلها يا فتاتي ، واضرعي إلى العذراء أن تكلأها ... ولكن ... خبريني يا لوريللا ... لقد سمعت الملاحين الخبثاء يلمزونك وأنت مقبلة ، فيقولون لك (هلمي أيتها العربية...) وهو نداء لا يليق بمسيحيه تقية مثلك ، فما سبب هذا ؟

— إنهم طالما يدعونني كذلك ، مستهزئين بي ، لأنني لا أشركهم في رقصهم وغنائهم وسائر عربداتهم ... وهذا بالرغم من مسالمتي لهم دائماً ...

وأغضت الفتاة ، وجعلت تبحث في خضرة المياه بعينيها المحزونتين ، كأنما راعها ما عرف القس من أمرها وأمر هؤلاء الملاحين ...

وساد الصمت ، وكان أنطونيو قد دفع الفلك في البحر فاحتواها الماء ، وصارت سورنتو تبتعد وتبتعد ، وتسطع منازلها البيضاء في خضرة حدائق البرتقال ، وفوهة الفيزوف تقذف بمثل ما في صدر لوريللا من حميم ... ثم سألها القس :

— ألم تعودي تعلمين من أمر الصور شيئاً يا لوريللا ؟ لقد سمعت أنه ذهب إليك مرة ليعمل لك صورة ، وأنك رفضت فلمه؟

— ولم يريد أن يصورني أنا من دون بنات سورنتو ؟ إن منهن من هي أروع مني جمالا وأكثر فتنة ! فلم يصورني أنا ؟ لقد ذكرت أمي أنه ربما تصباني بها ، أو أتلف بها روحي ، ومن يدري فربما أضمر بها قتلي ؟ من يدري ؟ !

— يا صغيرتي لا تصدقي هذه الخزعبلات ! ألا تؤمنين بالله ؟ ألا تتقين أنك دائماً في حفظه ؟ وأن شعرة واحدة منك لن يصيبها أذى إلا بإذنه ؟ فماذا يصنع واحد من بني الموتى بصورة في يده إن أراد بك سوءاً ؟ ... على أنني أعرف أنه كان مغرماً بك ، مشغوفاً بجمالك ... وأنه لذلك أراد الزواج منك ، لكنك أبيت ! ولست أدري لماذا ... إن الناس كلهم يمدحونه ويطرون أخلاقه ... ولقد كان في وسعه أن يتشلكم مما تقاسون من ضيق وشظف ، ويريحكم من عناء ما تنسجون من أجل الحياة ...

— تالله يا أبانا لقد كان فقرنا سبب إحجامنا ... إذ كيف يطيق ما نحن فيه من عوز ، وما تقاسي أمي من مرض ؟ لقد كنا نصير كلاً عليه ... هذا ... وأنا ؟ ! كيف أعيش في كنفه ذليلة بفقري وبيئتي ؟ هل أنا سينوره ؟ ! ماذا يقول لرفاقه حين يغشون داره ؟ إنه يهرب مني حينذاك ... أو ... يذوب حياء

— كيف تقولين هذا يا لوريللا ؟ ! إن الرجل الذي يحب لا يبالي ما تقولين ... على أنه كان يستطيع أن يهاجر إلى بلد بعيد فيعيش في جنة بفنه ، ويسعد بك إلى الأبد ... أوه ! ... لقد كان رسولا من السماء بعثته لإنقاذكم فطردتموه !

— لا علينا من ذلك أيها الأب ! إنني من جهتي ... لا أرغب في الزواج مطلقاً ...

— تعنين أنك نذرت أن تكوني راهبة ؟

— ... ؟ ...

— عنيدة ! ما أحسبك تزيدين أنك إلا مرضاً يا لوريللا ؟ بأي حق ترفضين هذه اليد الكريمة التي بسطتها لك السماء لتخلصك ولتنقذ حياة والدتك ؟

— آه ! إن لدي سراً ... يسد أنني لا أبتغي أن أبوح به لأحد !

— حتى ولا لي ؟ ! ولا لي أنا ... موضع اعتراف العذارى

جميعاً ؟! أنا يا لوريللا الذى طالما كنت صديقك ومفرّج الأحزان عن فؤادك ؟

— ... ؟ ...

— لا ، لا يا صغيرتى ! إنك لا تعرفين من هذه الحياة إلا قليلاً ، فأزيحى عن فؤادك ما ينوء به ... ثم إنى أعدك أن أكون أول مؤيد لك إن كنت على حق ...

وقبل أن تجيبه لوريللا ، أرسلت عينيها ناحية الملاح الشاب الذى كان موزع الفكر بين الحبيبة وبين الشراع وبين البحر ... والذى كان يحجب عينيه بطرف من وفاء رأسه وهو مع ذاك مصغ لحديث القس

ثم تكلمت لوريللا فذكرت للبحر الجليل ما يفزعها من الزواج ، لأنها تحتفظ بذكريات مشجية مما كان يحدث بين أبويها من نضال وشقاق ... « حتى لقد كان لا يتوقع أبى من مديده إلى أبى بالضرب المبرح الذى كان سبب ما تقاسيه اليوم من الأمراض ... أبداً لا أنسى هذه الوحشية أيها الأب ، تلك الوحشية التى أسميها وحشية الزواج ، والتى من أجلها أوثر أن أظل عانساً إلى الأبد ... ثم أنا لا أعرف قيمة هذه العلاقة التى تنشئونها بين رجل وامرأة ، فيظل الرجل قوياً وتظل المرأة ضعيفة ، يقبلها إذا أراد ، ويتجهم لها إن شاء ، ويلعب بها كما تلعب الرياح بالريشة التى لا حول لها ... أوه ! أقسم لك أيها الأب ، لو أننى كنت فى مقام والدتى لعرفت كيف أذود وحشية زوجى وأدفع أذاه ! ! تالله لأسقيته ضعف ما كان يحاول أن يسقينى ! مسكينة يا أبى ! لقد كنت ضعيفة فلم تحاولى أن تدافعى عن نفسك ، وسميت ضرب أبى إياك محبة ، والسكوت عن هذا الضرب طاعة ... »

ويحاول القس أن يخفف من نقمتها على حياة الزوجية ، ولكن محاولاته تذهب مع الريح ؛ ويذكر لها أن الأزواج ليسوا سواسية ، وأنهم ليسوا جميعاً قساة القلوب غلاظ الأكباد كما تظن ، وأن الشاب المصور الذى أحبها كان له قلب رءوف رحيم بحكم فنه وميوله الروحية العالية ... ولكن لوريللا تدفع عظاته فى ثورة جامحة ونقمة على الرجال لا تعرف التسليم

ويسمع أنطونيو هذا كله ... فيقف من الفتاة على مثل قوهة فيزوف !

* * *

ومتع النهار ، وألقت الفلك مراسيها عند كابرى ، ونزل أنطونيو فى الماء ليحمل القس إلى الشاطئ ، ثم عاد ليحمل لوريللا ...

— لا ... لن يحملنى رجل ماحييت !

ثم حسرت عن ساقيها ... الساقين الجميلتين المرمريتين ... ونزلت إلى الماء السعيد ! حاملة حزمتها ... وتبعها أنطونيو ... وفوق كتفه سلة من البرتقال سيبيعها فى سوق كابرى

ورجاها القس أن تذكره عند أمها ، وأن تذكر لها أنه ربما زارها غداة غد ... ثم أخذ طريقه إلى كابرى ... وأخذت طريقها إلى أنا كابرى ...

وكانت فى نفسها أشياء .. وكانت فى نفس أنطونيو أشياء .. فلما بعد القس التفتت فجأة لترى إلى أنطونيو فى الفلك .. فما كان أشد حياءها حين رأته خلفها ، وعيناه مسمرتان فى عينيها !

وباع أنطونيو برتقاله ... وعاد فى ساعة إلى الفلك ... وجلس فيه على أحر من الجمر ينتظر عودة لوريللا !

وما هى إلا ساعة أو نحوها حتى أقبلت الفتاة تتهادى كالقطاة وقد نهد ثدياها واهتزا ، ولمعت فوقهما شياطين البحر الأبيض .. فلما رآها أنطونيو وثب فى الفلك ، ونشر الشراع ، ورفع المرساة واستعد للاقلاع بصاحبته من فوره

وجلست لوريللا فى طرف المركب ، وولت ظهرها للملاح الشاب ، بحيث لم يكن يستطيع أن يرى إلا صورة جانبية (بروفيل) من وجهها الجميل ، مطبوعة فى السماء الصافية مرة ، وفى الماء الساكن مرة أخرى

لقد كان نصف فمها الجميل الخمرى الأحمر ، وخدها الأسيل الوردي، ووجنتها الناصعة ذات الزغب ، وعنقها الطويل الشفشاف ، لقد كان ذلك يثير فى قلب أنطونيو سنوفاً من العذاب الخائف ، والألم المذعور ... لا عهد له بمثلها أبداً ...

ولم يقلع أنطونيو ... وأخرجت الفتاة رغيفها وأخذت تتغدى ...

وأخرج الملاح برتقالات فقدمها لها وقال : « لا تحسبى أننى ادخرتها لك ... بل ... لقد سقطت من غير قصد من السلة قبل أن ننزل إلى البر ، فان شئت فكليها ...

— بل كلها أنت ... فالخبز القفار يكفينى !

— إنهن خير ما يؤكل فى هذا الحر القائظ ، لا سيما وقد مشيت كثيراً !

— لقد شربت فى الطريق ، وهذا حسبي !

— إذن ... خذيها لوالدتك !

— عندنا برتقال كثير ، وسنشترى غيره إن نفد !

— وماذا لو أخذت هذه البرتقالات ، وقدمتها إليها مع تسليماتى ؟!

— وكيف ، وهى لا تعرفك ؟

— خبريها عنى !

— أخبرها عنك وأنا لا أعرفك ؟

لقد كذبت لوريللا فى هذه الدعوى ... فلقد كانت تعرف أنطونيو ، وكان أول هذه المعرفة فى يوم كان يبثها حبيبها الصور هواه عند شاطئ البحر

يا له من يوم هائل ذلك اليوم ! لقد لمح نفر من الملاحين الحبيبين الصغيرين يتناجيان فتقامزوا بهما ، ثم أنشأوا يحذفونهما بحصوات ... لكن أنطونيو الشجاع ، لم يرضه ذلك المسلك المعيب الشائن من رفاقه ، فانبرى لهم ، ودفع عن الحبيبين أذاهم... فكيف مع ذاك لا تعرفه لوريللا ! ؟

ثم جلسا صامتين ... وبدا للملاح العاشق أن يبحر من فوره قبل أن يصل أحد فيتلف عليه تدبيره الذي خطر له فى مثل البرق

وتعمد أنطونيو أن يدخل بالفلك فى صميم البحر ... ليكون بعيداً من الشاطئ ما استطاع ... فلما حصل ثمة ... أنزل الشراع فجأة ، وترك الفلك تتقاذفها الأمواج ... ثم توجه نحوها وهتف بها يقول :

— أنت لا تعرفيننى ؟ إذن يجب أن أضع حداً لعبثك بى ! وينبغى أن أطلعك على ما أترع به قلبى بسببك ... إننى لا أطيق أن أصبر على طول صدك يا لوريللا ... !

— ماذا تعنى ؟ أى صد وأى عبث ؟ أتعنى أنك تحبنى ؟ إذن فاعلم أننى لن أحبك ، ولن أقبل أن أتخذك بعلاً ؛ لا أنت ولا أحداً غيرك ، أسمعت ؟-

— كلام ترسليه فى الهواء ! غرور وخيلاء ! أليس لك قلب ؟ لم جئت إلى هذه الدنيا إذن ؟ إنك أنثى ، أليس كذلك ؟ فلم خلقت أنثى ؟ إنك لا بد متزوجة يوماً ما ... ولو برغمك !

— من يدرى ؟ هل اطلعت الغيب ؟ ثم ما أنت وهذا ؟

— ما أنا وهذا ؟ ألم تدرك بعد ؟ إني أخشى أن تكونى من نصيب غيرى ! إن هذا يخرج بى عن صوابى ! إنه يصيبنى بالجنون

— وإذا أصبت بالجنون ، فما أنا وذاك ؟ هل وعدتك بشىء فأنت تجن إذا أخلفتك موعدى ؟ أى حق لك علىّ ؟ !

— أى حق ؟ حق عظيم يا لوريللا ... حق ليس سكا على ورق ، بل هو هنا ... فى صفحة قلبى ... حق يجعلك لى من دون العالمين ... لن أطيق أن أراك ذاهبة إلى قداس مع سواى؟! الموت دون ذاك ... !

— أنت حر تقول ما تريد ... ولن تخيفنى تهديداتك ... ثم أنا حرة كذلك ...

— وينبغى ألا تمادى فى هذا النى ... إنى لن أسمح لفتاة تموس عنيدة مثلك أن تعذبنى هذا العذاب الطويل ... هذا غير محتمل ... أنت هنا فى قبضتى ... ويجب أن تنفذى مشيئتى ! !

— إذا استطعت أن تفعل شيئاً فدونك ! ... أتريد أن تقتلنى ... إن ... خالفتك ؟

— أنا لا أحب أن أصنع شيئاً فاتي على نصفه ، وأترك النصف الآخر ... إن هذا البحر الزاخر اللجى يسعنا جميعاً ، ولن يضيق بى وبك ... يجب أن نقر فى أعماقه معاً ... أما ... وأنت

ثم انقض عليها وأمسك بذراعها ، وحاول أن يحملها ليهبط معها إلى البحر ... بيد أنه صرخ فجأة ... لأن لوريللا كانت فى هذه اللحظة كاللبؤة المغضبة ... فقد فتحت فمها الجميل الفاتن ثم أهوت على يمين أنطونيو ، فقضمت أنامله ، وانبجس الدم الحار الثائر متفجراً كأنه يتدفق من ينبوع ...

— ها ... أرأيت ؟ ها قد امتثلت لأوامرك كما ادعيت ... والآن ... ربما ما تزال تحسب أننى فى قبضتك ... أنظر ! !

ثم قفزت فى البحر الهائج الجياش ... وغاصت فى الماء ...

وصرخ أنطونيو ... وأرسل عينيه الفزوعتين تبحثان فى اللجج ، وتضربان فى ثنايا الموج ... لكنه لم ير شيئاً ... ولما التفت إلى الخلف ، وجد الفتاة تسبح نحو الشاطىء ، وهى تكافح العباب المتلاطم ، وتركب بجسمها الأهيف الجميل فوق أعراف الموج المضطرب

— لوريللا ... لوريللا ... قفى ... عودى إلى الفلك ...

إن المسافة طويلة... نحن من الشاطىء على ثلاثة فراسخ يا أختاه...

لكن الفتاة أصمت أذنيها ... وانطلقت تسبح ...

وفى سرعة البرق ، نشر أنطونيو شراعه ، ولوى عنان الزورق الكبير ، وذهب فى إثرها ... وجعل يرجوها ويتوسل إليها ... لكنها مضت فى سبيلها فى البحر سَرَباً ...

— لوريللا ... وماذا تصنعين إذا بلغت الشاطىء ؟ إننا على مسيرة ساعات من سورنتو ... عشرون ميلا يا أختاه ! !

ولم تعره لوريللا التفاتاً ... بل ذهبت تذرع البحر فى غير مبالاة ... فلما كانت على سَبحة أو سبحتين من الشاطىء ، لوت رأسها نحو الفلك ، وقالت لأنطونيو مستهزئة : « أما وقد وصلت فسأركب ... وحسبى أن أريتك أننى لست فى قبضتك ! ! » وتعلقت فى حبال السفينة ، ووثبت كالغزالة ، وراحت تعصر الماء من ملابسها ، فانهمر من تضاعيفها غزيراً ثجاجاً

ونظرت إلى يديه ، فوجدت الدم ما يزال يتدفق من يده ، فنزعت منديل رأسها ، وألقته إليه قائلة : « خذ ... أربط بهذا جرحك » لكن أنطونيو لم يفعل ، بل ظل يرنو إليها بعينين جائعتين ظامئتين معجبتين ... فتقدمت هى ، وربطت يده ، ثم جلست بجانبه ، وتناولت أحد المجذافين ، وراحت تعمل به فى الماء ، لأن الريح كان قد تغير هبوباً ... وحدجته لوريللا وقالت له : « وسترى أيضاً أننى أعرف منك بصناعتك ... هلم فاعمل كما أعمل إن استطعت ...

* * *

وكانت أم الملاح الشاب تنتظره عند المرفأ ، فلما رأت ما به سألته ماذا أصابه .. لكنه تضاحك ، وقال إن مساراً خدشه ..

ونزلت لوريللا ... وهتفت بالملاح أنها ستعوده ، وستأتيه بحشائش وأعشاب لها نفع عظيم فى مثل جرحه

ولم ينم أنطونيو برغم ضعفه الشديد وإعيائه المضنى ، ولم يخف ألمه برغم الماء الساخن الذى أعدته له أمه ، والذى نضحه على الجرح مراراً .. بل ظل الدم يتدفق .. وظل الفتى يتقلب .. وظل مع ذلك يفكر فى لوريللا

وكان ينظر إلى منديلها كأنه قُنية غالية ، أو نفحة من السماء أو تذكار عزيز لهذه المعركة التى انهزم فيها فى عرض البحر ... وفى ... معممان الحب !

وفى الوقت الذى قطع أنطونيو فيه كل أمل من لقاء لوريللا ... وفى هدأة الغسق الساكن ... دخلت لوريللا الجميلة الهيفاء ... لوريللا ... الحلم الجميل الساحر ... تحمل الأعشاب التى وعدت أن تأتى بها لمعالجة الجرح ، فقال لها أنطونيو :

— آه ... منديلك ، لقد أتيت تفتقدين منديلك

لكنها لم تجب ... بل بحثت عن وعاء ، وتناولت يد أنطونيو ففكت الرباط عن الجرح ، وكان قد تورم قليلا ، فغسلته بماء عصرت فيه من أعشابها ، ثم وضعت من الأعشاب عليه ما لا يؤذيه ، وربطت اليد المحمومة الساخنة برباط نظيف تيلى أحضرته معها ... فما هى إلا لحظة حتى زال ألم أنطونيو ... فافتر باسماً وهو يقول :

— أشكرك يا لوريللا ... وإذا كان لى أن أطلب شيئاً ، فهو أن تغفرى لى !

— بل أنا التى أطلب الصفح يا أنطونيو ... فى الحق ... لقد غاليت معك فى هذه الوسائل العنيفة ... والآن ... ما بال هذه العضّة ؟!

— لقد صنعت ما صنعت دفاعاً عن نفسك ... وأنا ما أزال أشكرك !

— وشىء آخر يا أنطونيو ! ألا تدرى أنك قد فقدت (جاكتتك) فى البحر وفيها نقودك ... أجور المسافرين ... وثمن ... البرتقال !

— هذا لا يهم يا لوريللا !

— بل ... لقد كنت أوثر أن أعوضك عنها لو استطعت... على أننى لا أملك إلا هذا الصليب الفضى ... خذه ... لقد تركه لى المصور يوم أن جاء يخطبنى

— وما أنا وهدية من خطيبك ؟ إننى لن أمسه أبداً

— لا تحسب أننى أقدمه هدية بدورى ... لا ... بل خذه فإنه ينفعك !

— بل خذيه وانصرفى مشكورة

وأخذت المنديل والصليب ، ثم وضعتهما فى السلة الصغيرة التى حملت فيها الأعشاب ... وحينما حاولت أن تنهض من جانب أنطونيو ... نظرت إليه ... وإذا عبرات حرار تتحدر فوق خديها فجأة ... وينظر إليها الملاح النائم ... فينهض كالظليم ...